الأسئلة في المدرسة!

وسيم الكردي

(1)

النظام التربوي العربي كما النظام السياسي العربي بتنويعاته «المفترضة»، لا يحاصر الأسئلة الجوهرية للناس فيما يخص حياتهم الراهنة ومستقبلهم، بل يقمعها، ويبدو أن «المدرسة» كمؤسسة تعليمية ما زالت تقوم بدور «تدجين المتعلمين»، وتعمل على تحويلهم إلى جزيئيات تتحرك ضمن آليات المنظومة المجتمعية التي تتحكم في مساراتها النظم السياسية وما يستتبعها من منظومات ثقافية واجتماعية واقتصادية. فلا ينبغي على الناس أن يسألوا الأسئلة التي تفتح القضايا الحقيقية لهم، لأن السؤال الحقيقي يفتح الفعل على مصراعيه، وهو فعل يفتح أفقاً للتغيير، ويثير الدافعية لاجتراح التصورات لخطى الغد.

(2)

إن السؤال يفتح فضاء للخيال كما يفتح فضاء لفهم الحياة، ويشتغل على إجابات متحققة من الفهم، ولكنها تستند إلى خيال ثرّ، يتحول إلى أفعال مجتمعية تسمح بحراك يغني التجربة الإنسانية. إن انغلاق فضاء الأسئلة في المجتمع يحوله إلى رهينة للنظام القائم والمنظومة الثقافية السائدة، ولا يتيح للأفراد كما المجتمعات التي تشارك عبر وجهات النظر المختلفة والمواقع المتنوعة، من إثارة الأسئلة الدافعة، والرافعة لمكانة أخرى. إن «أحلام اليوم هي إجابات أسئلة الغد» (إدجار كايسي).

(3)

وإذا ما استقصينا نظامنا التعليمي بوجه عام، فإننا سنجد طغيان أسئلة «المعلم في حصته أو في امتحانه» التي تشتغل على التأكد من «إن الطالب فهم الشرح»، أو للإمساك به «متلبساً بعدم الانتباه»، ونادراً ما تأتي الأسئلة لتدفع بالتجربة التعلّمية إلى فضاء أرحب، وإلى مستوى من التحدى المعرفي الذي يفتح أفق المتعلم إلى مستويات عديدة من التفكير، وإذا ما نظرنا في «الكتاب المدرسي»، ستطغى الأسئلة التي تشتغل على مستويات التفكير الدنيا، وبخاصة تذكر المعلومات، ولا تنتقل، إلا نادراً، إلى مستويات تفكير أعلى. ومن المؤكد أن حضور أسئلة المتعلم فيما يخص تعلمه ومواضيع تعلمه، تكاد تكون غائبة تماماً. ونحن نعرف أن الطفل يبدأ سنيه الأولى مكثراً من طرح الأسئلة؛ أسئلة تبدأ بلماذا؟ وكيف؟ وما ؟ . . . الخ، أسئلة تقوم على التفكير والتحليل والاستقراء، وتكون الرأي والرؤية . . . ثم تبدأ هذه الأسئلة التي تُطرح في البيت بالاختفاء، تبدأ بالاختفاء تدريجياً منذ أن تطأ قدماه «الروضة»، إلى أن تنتهي تماماً مع دخوله المدرسة، وهنا يتحول إلى كائن لا يسأل بل يجيب عن أسئلة المعلم، ويصبح في أحسن الأحوال «حافظاً» للإجابات كي ينال الرضا والاستحسان، أما إذا ما تجرأ على سؤال يخرج بالموضوع عما «رُسم له»، فسيكون أمام معضلة قد تدفعه إلى حجب أسئلته المحتملة في قادم الأيام. فبعد أن كان يسأل ويسأل ويسأل، ولا يترك أمراً إلا ويتساءل حوله ويستفسر عنه، يتحول إلى متعلم «مطيع» يجيب عن أسئلة المعلم والكتاب كما يتخيلها في ذهن المعلم وفي صفحة الكتاب. تتوقف الأسئلة بعد أن كان الأطفال يسألون ذويهم: «كيف جئنا إلى هذا العالم؟ أين نذهب بعد أن نموت؟ لماذا يقتل الناس بعضهم بعضاً؟ لماذا يلد الناس مع إعاقات ما؟ كيف تُصنع الكهرباء؟ ما هي الثقوب السوداء؟ ما هي الأبدية؟ لماذا السماء زرقاء؟ كيف تطير الطيور؟ لماذا هناك سنة كبيسة؟ لماذا يؤدي تقطيع البصل إلى ذرف الدموع؟ من أين تأتي الرياح؟ لماذا البحر مالح؟ ما الذي يصنع الرعد؟ لماذا نرمش؟ ما هو الزمن؟ من أين يأتي الماء؟».[1]

(4)

في السنوات الأخيرة، لهث المجتمع التربوي، وما زال يلهث وراء قصة «مستوى التحصيل» لدى طلبتنا في المدارس، ولقياس جودة «المناهج الدراسية الفلسطينية» الجديدة، التي بطبيعة الحال لم تعد جديدة. وبدأنا أكثر اهتماماً بالامتحانات الدولية التي تضعنا في أدنى سلم التحصيل بالنسبة للدول الأخرى المشاركة. والامتحانات الوزارية التي تبدو نتائجها متدنية أيضاً. إن إيلاء هذا الأمر اهتماماً خاصاً، والعكوف على تشكيل لجان ودورات ولقاءات وتدريبات . . . قد يبدو حسن النية، ولكنه في جوهره ركض وراء وهم أن (نتائج أحسن في امتحانات قياس التحصيل ستعني أن مستوى

التعليم سيكون أحسن أيضاً) . . . وهذا أمر لا يمكن لأحد أن يثبته!

(5)

لو سألت أياً كان في كل مجال التعليم حول الامتحانات؛ لأجاب هذه الإجابة، نعم الامتحانات لا تقيس قدرات الطلاب، وينبغي إدخال وسائط أخرى للتقييم، ولكن ماذا نفعل؟ علينا أن نضع العلامة، الامتحان هو الطريقة الأبسط والأسهل، هناك معلمون يعيدون الأسئلة تماماً كما هي . . . تماماً! قبل فترة بسيطة وقع بين يدي امتحان اللغة العربية الوزاري، وكان الامتحان «تقريباً» يقوم على نموذج للامتحانات هو نفسه، ولم يتغير، هكذا كان قبل عشر سنوات وعشرين سنة وثلاثين سنة وأربعين سنة. ما تغير هو الأمثلة والنصوص، أما طبيعة الأسئلة ومستوياتها فهي هي! وإذا سألت، فسيكون الجواب: ولماذا نغير؟ فالموضوع نفسه، وأسئلته نفسها، وينبغي أن نضع الأسئلة نفسها.

(6)

كل كتب التربية تحشد قوائم لمستويات التفكير وطرائق القياس، كما يوجع التربويون رؤوسهم ورؤوسنا في الجامعات وكليات التربية، وهم يدرسوننا حول أنواع التفكير وأنماط القياس، ويهلكون ويهلكوننا حديثاً عن «بلوم وتصنيفاته» . . . وحين نذهب إلى ورقة الأسئلة في الامتحانات، فإننا نجد، في الغالب، نوعاً واحداً من مستويات التفكير والإدراك؛ إلا وهو ذكر المعلومات وتذكرها . . . .

(7)

أعتذر لكم مسبقاً لحشد القائمة اللاحقة "التي نعرفها جميعاً جيداً": التجميع، الوصف، التعريف، وضع اللوائح، العرض، الإخبار، الترتيب، الفحص/الاختبار، التمييز، التسمية، إعادة الإخبار، التراتب، الاقتباس، التعديد، المطابقة، القراءة، التسجيل، إعادة إنتاج، النسخ، الانتقال، الربط، المقارنة، التمييز، التوسع، الترجمة، التنبؤ، التفريق، التغاير، المغايرة، المناقشة، التخمين، التلخيص، التدريج، الاستشهاد، التحويل، الإيضاح، الصياغة، إعادة الصياغة، إعادة، التتبع، التطابق، التصنيف، التغيير، الإيضاح بالرسم، الحل، الاحتساب، الإتمام، التعديل، التشويف، التجريب، بناء العلاقات، الاكتشاف، الفعل، الإدارة، التفصيل، الرسم البياني، الجمع، الاحتساب، التركيب، التقرير، التطوير، التأسيس، الإعداد/التهيئة، الإنتاج، الإبلاغ، التدريس، الاستعمال، التحليل، الترتيب، الوصل، التقسيم، الاستدلال، الفصل، الموازنة، التوضيح، الاختيار، التجزئة، الملازمة، التخطيط، التمايز، التبئير، التصوير، الاستنتاج، الإيجاز، الخطوط العريضة، الدمج، التكوين، التعميم، التعديل، الابتكار، التخطيط، التعويض والاستبدال، الخلق، التكامل، العد، الترتيب، التصميم، إعادة الكتابة، الكيفية، التوقّع، المعاونة، التجميع، الاستنباط، التعبير، التيسير، التبسيط، التسهيل، التعزيز، البدائل، التدخّل، التفاوض، إعادة التنظيم، الإثبات، التقدير/التقييم، المقارنة، القياس، الاستخلاص، التوضيح، الحكم، التلخيص، الإسناد، التثمين، النقد، المدافعة . . . ".

أود «منا» أن نعود إلى «كتبنا المدرسية»، وإلى «حصصنا التدريسية»، وإلى «أسئلة طلبتنا المغيبة»، لنقوم بجردة حساب بسيطة . . . فكم من هذه «الطرائق» تفضي إليها أسئلتنا؟ هل نأخذ بعين الاعتبار إضافة إلى نشدان المعلومات، تحفيز التفكير، تعميق البصيرة، تشجيع الجدل، التأثير على القرارات؟ تبئير المسببات، إقامة الافتراضات، تشجيع البحث، الحث على التنبؤ، الحث على الموازنة، استلهام التعاطف، كشف الانفعالات، تأسيس مزاج، تحويل تركيز، خلق انتباه، تأكد من الفهم؟!

(8)

كم هو عدد الأسئلة التي يطرحها المعلم في حصته؟ وكم هو عدد الأسئلة التي يصوغها التلميذ في حصته؟ طبعاً ليس هذا هو السؤال الجوهري، إنما السؤال الجوهري ما هي نوعية الأسئلة التي تُطرَح؟ وإلى ماذا تتطلع؟ هذا هو المهم.

(9)

ربما لا أبالغ كثيراً إذا ما ذهبت إلى القول إن لا طالبَ يحب الامتحان، ولن أبالغ إذا ما ذهبت أيضاً إلى أن الأكثرية الساحقة من الطلاب يكرهونه، ولن أبالغ أيضاً إذا ما قلت إن معظم المعلمين يكرهون الامتحانات التي يصوغونها وأكوام الأوراق والدفاتر التي ستحتاج إلى التصحيح تبعاً لذلك. عمل عبثي بامتياز . . . فقط غايته تصنيف «الطلاب ومستوياتهم»، ومن ثم وضع علامة لهم.

(10)

إن الامتحانات في بلادنا كوابيس، والكل يشتغل على صوغها، والكل يلهث؛ الوزارة، المشرفون، المديرون، المعلمون، الطلاب، الصحف، وتجار أدلة «الإجابات الصحيحة». والكل يلهث لتحسين نتائج الامتحان الوزاري أو الامتحان الدولي «تيمس» أو امتحان الثانوية العامة . . .) لهاث في لهاث، وكأن تدني المستوى في الامتحان يعني تدني مستوى التعليم، وكأن نتائج أحسن تعني مستوى تعليم أعلى. باختصار شديد، لن يؤشر الامتحان إلى نجاح التعليم ولا إلى فشله . . . لأنه ببساطة شكل واحد (هذا إذا ما أجيد) لقياس قدرات الطلبة.

(11)

إن «السؤال» هو جوهر البحث، الرؤية، يحرك الخيال، يهدي، يشير، يؤشر، يفتح، يدل، يرشد، يبعث، يبث، يضيء، يعيد، يستعيد . . . كيف يتحول في النظام المدرسي إلى قفص، سجن، قيد، إغلاق، تقييد، كابوس، قلق، خوف . . . .

(12)

ينبغي أن تكون لدينا الجرأة في أن نعيد النظر في كل نظامنا التعليمي، إن نظامنا الراهن يتطلب المغامرة، كما تتطلب كل مناحي الحياة الأخرى ذلك أيضاً. لعلني أستند إلى النفّري الذي يبث فينا شجاعة ما ينبغي التحلي بها، ليس لنكون في موضوع التفاخر بشجاعتنا، بل في أن نجد خلاصاً لنا مما نحن فيه. «في المخاطرة جزء من النجاة». فهل نعيد طرح طبيعة النظام ومخرجاته مرة أخرى، وبصورة

جذرية؟ هل بإمكاننا أن نصوغ الأسئلة المناسبة كي نتمكن من وضع الأسئلة الملائمة في الحصة وفي الكتاب وفي الامتحان؟ والأهم أن يتعلم أطفالنا صوغ الأسئلة المحفزة للخيال والبحث والتجريب. هنا يكمن التحدي الأكبر.

(13)

يرد في تراثنا العربي كثيراً مقولة «حسن السؤال مفتاح العلم» . . . !!! فهل نحسن السؤال؟!

(14)

تقول الحكمة الإفريقية «الذي يطرح الأسئلة لا يفقد طريقه» ولكن أية أسئلة أيضاً؟

(15)

في التراث الإنساني يقولون: «لا أستطيع شيئاً لمن لا يطرح الأسئلة» (كونفوشيوس). «أسئلة لا تحمل أجوبتها فيها ليست جديرة» (فرانز كافكا). «الجواب هو بؤس السؤال» (موريس بلانشو). «في الامتحانات، الأحمق يطرح الأسئلة، والحكيم لا يجيب عنها» (أوسكار وايلد). «مفتاح الحكمة هو معرفة كل الأسئلة الصحيحة» (جون سيمون). «أحلام اليوم هي إجابات أسئلة الغد» (إدجار كايسي). «العقل يجيب عن الأسئلة، ولكن الخيال هو الذي يطرحها؟» (رالف جيرارد).

(16)

أما فولتير فيقول «أحكم على المرء بأسئلته، بدلاً من إجاباته».

الهامش:

[1] معظم هذه الأسئلة طرحها أطفال على ذويهم في دراسة تتعلق بما يطرحه الأطفال من أسئلة محرجة على ذويهم.

البروفسور ديفيد ديفز المستشار الرئيسي لبرنامج «الدراما في سياق تعلمي» يتحدث خلال ورشة عمل حول «الحلقة البحثية: الدراما في التعليم» التي أسسها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي العام 2010